شعر الحماسة في القرنين الثالث والرابع للهجرة

نصوص تمهيديّة

التأطير التاريخي

من تاريخ الدولة العبّاسيّة

بلغت الدّولة العبّاسيّة أوج ازدهارها وسيطرتهاعلى العالم خلال العصر العبّاسيّ الأوّل (انطلاقا من 132هـ) وخصوصا فيما بين 150 و 230هـ، وهي الفترة التي تعتبر إطار العصر الذهبيّ في تاريخ العرب ومنتهى ما وصلوا إليه في المشرق من قوّة وتفوّق وبروز على جميع الأصعدة وفي جميع المستويات. غير أنّ هذه الدولة المترامية الأطراف لم يكن من السهل ولا من العمليّ أن يدير دواليبها ويراقب سيرها ويتابع ازدهارها المذهل هيكل حكم مركزيّ جامع انطلاقا من قاعدة واحدة. فكان أن قبل العبّاسيّون منذ عهد هارون الرشيد (ت. 193هـ/ 808م) أن تستقلّ بعض الأطراف البعيدة من الإمبراطوريّة العربيّة الإسلاميّةعلى أن يبقى لها ـ بصورة من الصور ـ علاقة بمركز الخلافة (بغداد) : كان هذا شأن الدولة الأغلبيّة بتونس (وقد نشأت سنة 184 هـ / 800م) والدولة الطولونيّة بمصر والدولة الطاهريّة بخراسان والدولة السامانيّة بما وراء النهر.

غير أنّ هذه المقاطعات لم تكن معادية للعبّاسيّين ولا ذات عقليّة انعزاليّةعن العروبة بل كانت عوامل قوّة للفكرة العربيّة الإسلاميّة والنفوذ العربيّ الإسلاميّ على العالم المعروف وقتها.

أمّا في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة فإنّ الأمور أصبحت مختلفةجدّا عن ذي قبل : فمظاهر الانقسام الأولى المشار إليها سابقا حصلت في الأطراف البعيدة من الإمبراطوريّة فكانت حصون حماية لها وأسباب دعم ومنعة. أمّا في هذه الفترة فقد بدأت عوامل الضعف والانقسام تنخر جسد الدولة العربيّة الكبرى من الداخل وأخذت عوامل التراجع السياسيّ في الظهور لأسباب عديدة معقّدة أهمّها الأزمات الاقتصاديّة والاضطرابات الاجتماعيّة... فكان أن تطاول قوّاد الجيش على السياسة المدنيّة وعلى الإدارة وتشدّدوا في الجباية وهيمنوا على الخلفاء حتّى تحوّلت الخلافة إلى منصب تشريفيّ شكليّ فارغ من كلّ سلطة. ومع ضعف نفوذ الخلفاء والوزراء أصبح القواد انطلاقا من عهد الراضي (ت. 322هـ / 934م) يجمعون بين السلطتين العسكريّة والمدنيّة في خطّة جديدة هي خطّة "أمير الأمراء". وكثرت المؤامرات والانقلابات فاستفحلت الفوضى الإداريّة والاضطرابات الاجتماعيّة والتراجع الاقتصاديّ بسبب إقطاع الأراضي للقواد وإرهاق الفلاّحين بالضرائب، وكثرت القلاقل والفتن... فتمزّقت الإمبراطوريّةالعبّاسيّة ـ في النصف الأوّل من القرن الرابع الهجريّ/ العاشر الميلاديّ ـ إلى دويلات لم تعد لها بمركز الخلافة وبالخليفة في بغداد إلاّ صلات ضعيفةجدّا، بل إنّ بغداد نفسها ـ عاصمة الخلافة ومقرّ الخليفة ـ قد تحوّلت انطلاقا من سنة 334 هـ / 946 م إلى مقاطعة يحكمها البويهيّون وهم أسرة فارسيّة كانت لأفرادها وظائف قياديّة في الجيش العبّاسيّ.

مبروك المنّاعي.

"أبو الطيّب المتنبّي قلق الشعر ونشيد الدهر"

دار اليمامة للنشر، تونس 1991 ص 11 – 13

قسّم النصّ إلى أقسام بحيث يتحدّث كلّ قسم عن طور من أطوار الخلافة العبّاسيّة.

أطوار الخلافة العبّاسيّة

الدور الأوّل ـ دور القوّة المركزيّة

أيْ قوّة الخلافة ويمتدّ من بدء الدولة إلى أواخر حكم المتوكّل، فيشغل نحو قرن من الزمن بلغت فيه الخلافة أقصى قوّتها وأزهى مظاهر مجدها. وفي هذا الدور كانت بغداد عاصمة لسلطنة واحدة تمتدّ من حدود الهند إلى إفريقيّة (تونس).

الدور الثاني ـ دور الجنديّة

كان الخليفة المعتصم قد نظّم من فتيان الأتراك جندا يعتمد عليه في حماية العرش. فلمّا مات أصبح نفوذ أمراء الجند شديدا في الخلافة. ولم يكد يُقتل المتوكّل سنة 247 هـ حتّى أصبح الخليفة في قبضتهم يتصرّفون به كما يشاؤون. ويمتدّ هذا الدور إلى سنة 334 هـ . على أنّ الخلافة بقيت برغم استبداد الجند محافظة على شيء من رونقها، وكان لها وزارة وعمّال. وممّا يذكر في هذا الدور أنّ ديوان الخلافة كان قد نقله المعتصم سنة 221 هـ إلى سامرّاء وبقي فيها نحوا من 58 سنة ثمّ أعيد إلى بغداد.

الدور الثالث ـ الدور البويهي (334هـ ـ 447 هـ)

وفيه كانت السلطة الحقيقيّة في أيدي بني بُوَيْهٍ "وصارت الوزارة من جهتهم والأعمال إليهم" وأصبح الخليفة لا يملك من المال إلاّ راتبا يتقاضاه. على أنّ البويهيّين كانوا أهل سياسة ودهاء، فأبقوا للخلافة نفوذها الأسمى وصاروا يحكمون في الدولة ظاهرا بإمرة الخلفاء. وبقوا كذلك إلى أن ضعفوا ثمّ زال ملكهم بقيام السلاجقة.

الدور الرابع ـ الدور السَّلْجوقيّ (447هـ ـ 590هـ)

فيه كانت السلطة للسلاجقة، وهم دولة تركيّة قويّة فرضت مملكتها واستولت على الأمر في بغداد وضربت باسم سلاطينها النقود وخُطب لهم على المنابر. على أنّهم كانوا كالبويهيّين يحافظون على الخلافة ويظهرون التبجيل لصاحبها.

الدور الخامس ـ دور الاحتضار.

انقرضت دولة السلاجقة من بغداد أيّام الناصر، ولكنّ الانحلال كان قد تمكّن من جسم المملكة العباسيّة. فلمّا ذهب بنو سلجوق لم يبق للخلافة في بغداد سوى بعض أنحاء العراق. فكانت الخلافة في طور الاحتضار، ولم تزل كذلك حتّى جاءها المغول سنة 656 هـ فنهبوا بغداد وقتلوا آخر خلفائها ومَحَوْا ما كان قائما من معالمها.

أنيس المقدسي. "أمراء الشعر العربيّ في العصر العبّاسي"

دار العلم للملايين ط 7 بيروت 1967 ص ص 6 ـ 7 ـ 8

استخلص من النصّين الأوّل والثاني أهمّ الأسباب التي أضعفت الدولة العبّاسيّة. هل توجد في نظرك أسباب أخرى ؟

الصراع بين العصبيّات في الدّولة العبّاسيّة

بين العصبيّات الثلاث التركيّة والفارسيّة والعربيّة تقسّمت المملكة الإسلاميّة، ولأجلها وقعت الحروب وسادت الفتن، فلا تكاد تخلو سنة من حروب بين فرس وترك وعرب، وأحيانا ينضمّ بعض إلى بعض ؛ فقد كان في جيش بني حمدان أحيانا فرق من الجيش التركيّ، كما كان مع بعض بني بويه بعض الأتراك، والبلاد تخرّب من القتال، والروم ينتهزون فرصة اشتباك أمراء المسلمين بعضهم مع بعض للإغارة على الثغور الإسلاميّة والتنكيل بمن فيها.

وكان من نتيجة هذه العصبيّات الثلاث، واستعمالها السيف في بسط نفوذها، وضعف الخلفاء عن كبح جماحها، انقسام المملكة إلى مناطق نفوذ، فلو نظرنا إلى المملكة الإسلاميّة في النصف الثاني من القرن الثالث وفي القرن الرابع الهجريّ، لرأينا الأندلس يحكمها الأمويّون وهم عرب، وبلاد المغرب يحكم بعضها الأدارسة وهم عرب، وبعض قبائل البربر، والفاطميّون وهم عرب، ومصر والشام يحكمها الطولونيّون الإخشيديّون وهم أتراك، ثمّ الفاطميّون وهم عرب، والحمدانيّون في الموصل وحلب وهم عرب. والعراق يحكمه الأتراك باسم الخليفة العبّاسيّ وينازعهم السلطان عليه الحمدانيّون وهم عرب، ثمّ يستولي عليه البويهيّون وهم فرس. وفارس تقتسمها دول مختلفة : الدلفيّة في كردستان وهم عرب، والصفّاريّة في فارس كلّها وهم فرس، والسامانيّة في فارس وما وراء النهر وهم فرس، والزياريّة في جرجان وهم فرس والحسنويّة في كردستان وهم أكراد، والبويهيّة في جنوبي فارس وهم فرس، والغزنويّة بأفغانستان والهند وهم أتراك.

أحمد أمين. "ظهر الإسلام" دار الكتاب العربيّ ط 5 بيروت 1969 ج1 ص60

1- بم تفسّر عودة العصبيّة العرقيّة بقوّة حتّى انقسمت المملكة الإسلاميّة إلى دويلات ؟
2- ضع على الخريطة الأقوام المذكورين في النصّ ثمّ حاول استخلاص الأسباب الموضوعيّة لانقسامهم.

النفوذ الفارسيّ

نجح الفرس إلى حدّ كبير في اقتطاع أجزاء من الدولة والاستيلاء عليها، واستبدادهم بها، وقصر سلطة الخليفة على المظهر الاسميّ؛ فَمِنْ قديم استولى الطاهريّة على خراسان (205هـ ... 259هـ) والصفّاريّة على فارس (254هـ ... 290هـ)، والسامانيّة على فارس وما وراء النهر (261هـ...389هـ) والزياريّة على جرجان (316هـ...434هـ) ثمّ دولة بني بويه الفارسيّة أيضا (320هـ...447هـ)، فقد استولوا على فارس ثمّ على العراق، وأخضعوا الخليفة لأمرهم، وأزالوا ولاية الترك عليه، وأقاموا سلطانهم، فكان شأنُ الخليفة منهم شأنَه مع الترك قبلهم : مظهر ولا عمل، ولقب ولا أمر ولا نهي.

المرجع السابق ج1 ص 50

صراع النفوذ وانقسام الدولة

بجانب النفوذ التركيّ والنفوذ الفارسيّ كان هناك النفوذ العربيّ. وأظهرُ ما كان ذلك في الشام والجزيرة، فالعرب الذين هاجروا من جزيرة العرب إلى الشام والعراق كانوا ـ دائما ـ قوّة سياسيّة تحسب الخلفاء حسابها... ولمّا ضعفت القوّة المركزيّة في بغداد شرعت هذه القبائل الهائمة في صحراء الشام ووادي الفرات تحطّ رحالها وتنشئ مستعمرات ثابتة، وتحتلّ المدن والقلاع، وتكوّن دويلات. فكوّنت قبيلةُ تغلب دولة الحمدانيّين في المَوْصِل وحلَب (317هـ...394هـ) وكوّنت قبيلةُ كِلاب دولة المرْداسيّين في حلب (414هـ...472هـ) وكوّن بنو عقيل العقليين دولة في دِيار بَكْر والجزيرة (386هـ...489هـ) وكوّن بنو أسد دولة المزَيَديّين في الحِلَّة (403هـ...545هـ). وأهمّ هذه الدول العربيّة التي تجلّت فيها العصبيّة العربيّة واشتبكت مع العصبيّة التركيّة والفارسيّة هي دولة بني حمدان التغلبيّة ؛ فقد عظُم نفوذها بالموصل وحلب، وأراد الحمدانيّون الاستيلاء على بغداد وطرد النفوذ التركي والفارسيّ واستخلاص الخليفة لهم، وجرت في ذلك سلسلة حروب طويلة.

المرجع السابق ج1 ص 57

– بيّن مواطن الدولة الحمدانيّة على الخريطة ثمّ عيّن الأطراف الداخليّة والخارجيّة التي كانت تتصارع معها. ما رأيك في الوضع السياسيّ لهذه الدولة ؟

بين العرب و البيزنطيين

كان العرب يطلقون على المملكة البيزنطيّة "بلاد الروم" ثمّ أطلقوا على البحر الأبيض المتوسّط "بحر الروم" وعلى مرّ الزمان كان أكثر ما يطلق اسم الروم على بلاد النصارى المتاخمين للمملكة الإسلاميّة، ولهذا كان أكثر ما يطلق على بلاد النصارى في آسيا الصغرى ؛ وكانت تسمّى الحدودُ التي بين الدولة الإسلاميّة والدولة البيزنطيّة "الثغورَ" ممتدّة من مَلَطْيَة إلى أعلى الفرات وإلى طَرَسُوس. وكانت هذه الثغور محصّنة من الجانبين ومنقسمة إلى قسمين : ثغور الجزيرة وثغور الشام ؛ فمن الأوّل مَلَطْيَةَ وزِبَطْرَةَ وحصن مَنْصُور والحَدَث ومَرْعَش والهَارُونيّة والكَنِيسَة وعَيْن زَرْبَةَ ومن الثاني المِصّيصَة وأَذَنَةُ وطَرَسُوسُ.

ومنذ فتح الشام ومصر في عهد عمر بن الخطّاب والحروب قائمة بين المسلمين والروم، وكانت الثغور بين حركتي مدّ وجزَر باستمرار، وكان القتل والأسر في الجانبين أمرا متتابعا... كانت هذه الحروب سببا في أسر عدد كبير من الروم واسترقاق كثير منهم... فالحروب تكاد تكون متّصلة والأسر من الجانبين متتابع.

أحمد أمين. ظهر الإسلام ج1 ص65

بيّن على الخريطة مواطن التماسّ بين المسلمين والروم.

الدولة الحمدانيّة

أسس الدّولة الحمدانيّة في الموصل(شمالي العراق) أبو محمّد ناصر الدّولة بن حمدان (ت 317هـ / 929م) وفي سنة 333هـ / 945 م زحف أخوه علي بن حمدان المشهور بلقب سيف الدّولة على الشّام وانتزع مدينة حلب من أيدي الإخشيديّين. وكانوا قد استقلّوا هم أيضا بدولة عاصمتها الفسطاط بمصر، وأقام فيها دولة صغيرة من أهمّ الدويلات في تاريخ العرب العسكريّ والأدبيّ. عاشت تنازع الرّوم شمالا والإخشيديّين جنوبا. ثمّ إنّ سيف الدولة حاول أن يبسط سلطانه على دمشق أيضا ولكنّه أخفق فصرف جهوده للمهمّة التي وقف بقيّة حياته عليها وهي صدّ البيزنطيّين عن شمال المنطقة العربيّة ومحاولة التوغّل في أرضهم... وكانت له معهم وقائع مشهودة خلّدها المتنبّي في شعره وأهمّها انتصاره على أعظم حملة أرسلها الإمبراطور البيزنطي برزوس فوكاس تتكوّن مقاتلتها من الروس والبلغار والخزر ويقودها يوحنا تسيميتسيس (الدمستق)، وتمّ له هذا النصر قرب مرعش... وظلّت الحر ب بينه وبينهم تهدأ وتثور حتّى موته سنة 356هـ / 967م...

مبروك المنّاعي. أبو الطيّب المتنبّي قلق الشعر ونشيد الدهر دار اليمامة للنشر والتوزيع تونس 1991 ص15

ما الوظيفة التي اضطلع بها المتنبّي في معارك سيف الدولة ؟

العبيديّون

كان مبدأ أمرهم أنّ محمّدا الحبيب بن جعفر المصدّق بن محمّد المكتوم بن إسماعيل الإمام بن جعفر الصّادق بن محمّد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السّبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كان مقيما بسَلَمْيَةَ من أعمال حِمْصَ وكان أهل شيعتهم بالعراق واليمن وغيرهما يتعاهدونه بالزيارة إذا زاروا قبر الحسين عليه السّلام. فلمّا أدركته الوفاةُ عهد إلى ابنه عبيد اللّه وقال له : أنت المهديّ وتهاجر بعدي هجرة بعيدة وتلقى محنة شديدة... وارتحل عبيد اللّه بعد مدّة من الزّمن إلى إفريقيّة، وتلقّب بالمهديّ، ونزل رقّادة في ربيع سنةَ سبعٍ وتسعين ومائتين وبويع البيعة العامّة واستقام أمره وبعث العمّال على النواحي. وولّى عهدَه ابنه أبا القاسم محمّدا ويقال له نزار وبنى مدينة المهديّة وجعلها دار ملكه... وخرج بالمغرب خارجيّ اسمه أبو يزيد يعرف بصاحب الحمار وتبعه النّاس فقصد مدينة المهديّة يريد فتحها. فعجز عن ذلك ورجع من حيث أتى.

... ثمّ قام بالأمر المنصورُ باللّه إسماعيل، بعد القائم بأمر اللّه أبي القاسم .. وَوَلِيَ الأمرَ بعدَه ابنُه المعزُّ لدين اللّه معدّ، فاستقام له الأمر وانتهت مملكته بالمغرب إلى البحر المحيط وافتتح مصر على يد قائده جوهر في منتصف شعبان سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة واختطّ له القاهرة ثمّ قدم المعزّ إلى مصر ودخل القاهرة لِخَمْسٍ من رمضان سنة اثنتين وستّين وثلاثمائة.

القلقشندي

صبح الأعشى في صناعة الإنشا ج 5 ص 122...124 نسخة مصوّرة عن الطبعة الأميريّة بمصر

1- ما الأسبابُ التي جعلت الشيعة يسعون إلى تأسيس دولة تقوم على المذهب الشيعيّ ؟
2- كان كلّ خليفة فاطميّ يوصي لابنه بالخلافة بعده. فما رأيك في ذلك ؟ وما صلة وراثة السلطة بالمذهب الشيعي ؟

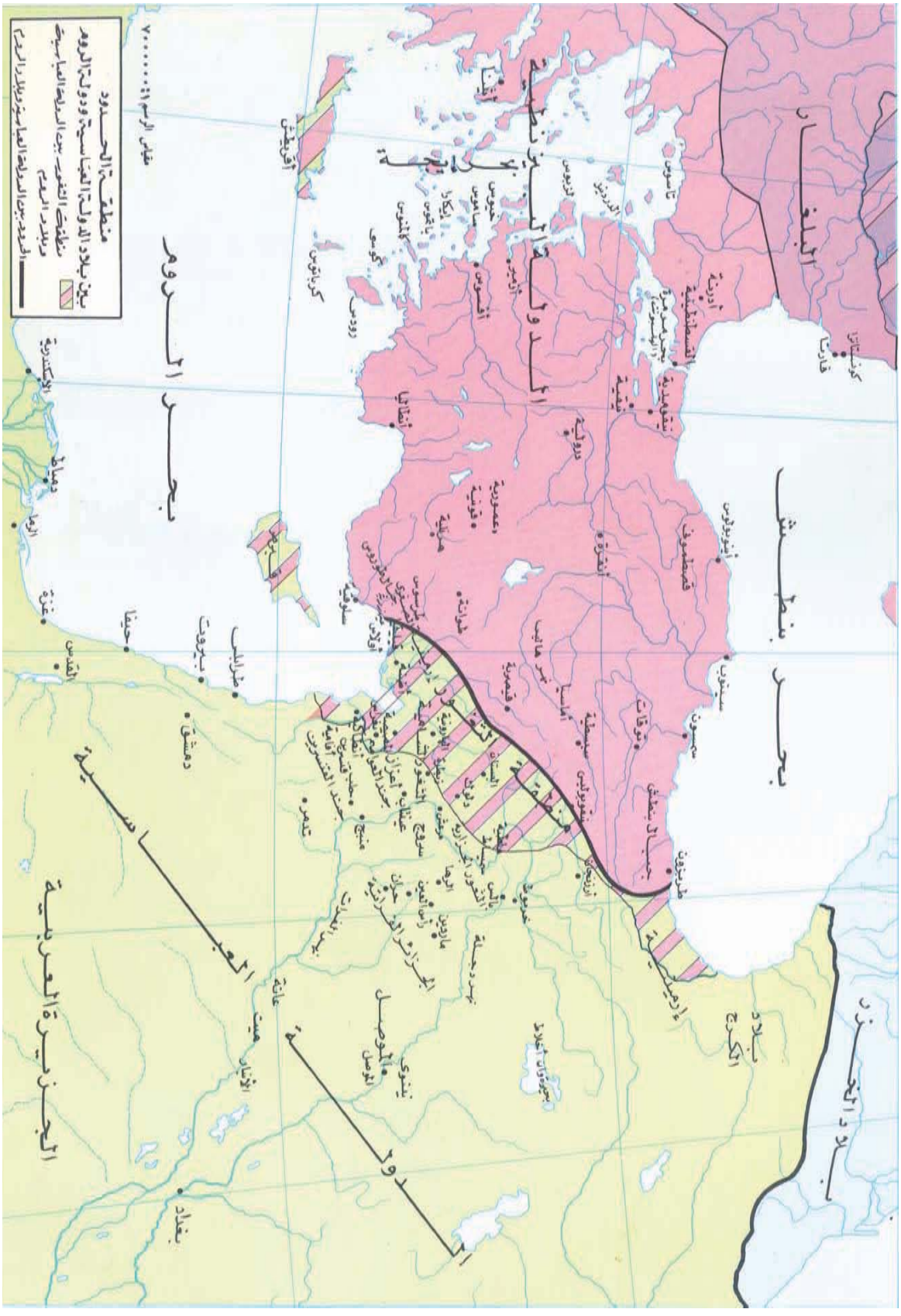

حسين مؤنس. أطلس تاريخ الإسلام. الزهراء للإعلام العربي ط1، 1987 القاهرة ص 150

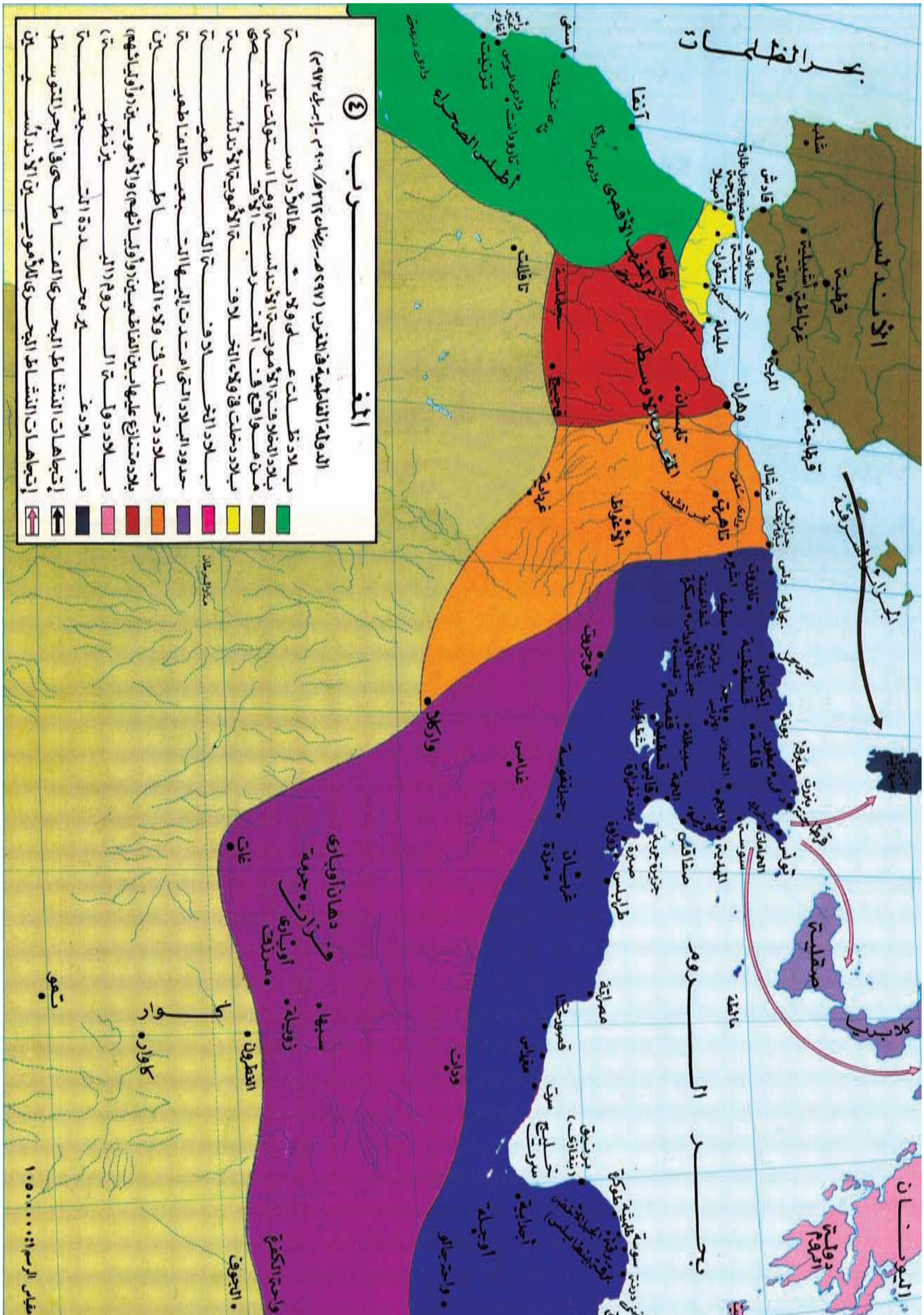

حسين مؤنس. أطلس تاريخ الإسلام. الزهراء للإعلام العربي ط1، 1987 القاهرة ص 162

المفاهيم

حماسة أم ملحمة ؟

في الاصطلاح اللغويّ عندنا، يكاد ينحصر مدلول الحماسة في الشجاعة الحربيّة، وفي القتال من أجل فكرة سامية كالعقيدة أو الحرمة أو الشرف. وتوسّع مدلول الكلمة في الأدب، فضمّ الشعر الذي ينظم في هذه الأغراض إمّا للتحريض على القتال قبل الموقعة، وإمّا لاستعراض تفاصيل الوقعة بعد النصر، استعراضا فيه الفخر المغالي والنخوة الشديدة.

واشترك في هذه الدلالة جملة من المفردات، كلفظة "الحميّة" التي تعني العصبيّة والنصرة والدفاع والنضال والأنفة من الشيء المستكره الذي فيه مساس بالشرف والمروءة. كذلك كلمة "الحميّا" في معنى الغضب الشديد، وفي معنى الحرارة المكتسبة من عنفوان الشباب أو من حرّ الشمس وحتّى من الحوامض المسكرات. ونجد أيضا في أطراف هذا المعنى لفظة "الحِمَي" وهو كلّ منطقة حرام يجدر بالمرء أن يحميها ويضحّي في حرمتها بحياته. والحمى يتمثّل في البيت والدار ومنازل القبيلة وفي مسقط الرأس، ثمّ في الوطن الواسع... وفي الأناشيد الوطنيّة الحماسيّة كثيرا ما نسمع تمجيدا " لحماة الديار" بمعنى حماة الحمى.

هذه المعاني تعرف في الأدب الغربيّ بعنوان ملحمة(Epopée) وأدب ملحميّ(Littérature épique). والملحمة عندهم هي القصّة الشعريّة التي تروي ـ في صياغة أدبيّة رائعة، وفي خيال شعريّ عجيب ـ أعمالا جبّارة يقوم بها بطل فذّ كَعُولِيس في الأُوديسا وآخيل الإغريقيّ وهِكْطور الطروادي في الإلياذة أو مجموعة أبطال كملوك إيران في الشاهنامة الفارسيّة. وقد أحسن المعاصرون ترجمة العبارة اليونانيّة بلفظ "ملحمة" لأنّ مادّة "لحم" في اللغة تدلّ، هي الأخرى، على القتال الشديد الذي يختلط فيه المقاتل بعدوّه ويلازمه حتّى كأنّه لحمة واحدة. إلاّ أنّهم ـ أعني المعاصرين ـ حادوا قليلا بالكلمة فألحقوها بالغرض الشعريّ المعروف عندنا قديما بحماسة و" أدب حماسيّ".

محمّد اليعلاوي. مجلّة الفكر أكتوبر 1970 السنة 16 عدد1 ص, 91 /92

1– ما مفهوم الحماسة حسب الكاتب ؟

2– هل تلمس فرقا بين الملحمة والحماسة ؟ علّل جوابك.

ماذا تعني الحماسة ؟

الواقع أنّها معنى غير الشجاعة، وغير الاستعداد للقتال، وغير الشدّة أو التشدّد في الدفاع عن العرض أو الرأي أو العقيدة، فلا بدّ من تلمّس المعنى في الجوّ الذي يحيط باستعمالها أينما وردت، والتقاط ما يوحي به ذلك الجوّ. وهذه التفسيرات التي يلجأ إليها علماء اللغة تضعك على نحو ما في جوّ معناها، ولا تدلّك على المعنى الحقيقيّ، لأنّها تشير فعلا إلى موقف روحيّ، إلى حالة نفسيّة، أكثر ممّا هي دلالة على شيء ثابت، أو وضع جامد، بحيث يمكن تعريفها على وجه شامل، وفقا لما يندرج فيها من إيماءات وصور. إنّها "تَحفّز نفسيّ للبذل والدفاع والوثوب والفداء، كلّما شعر المرءُ بحاجة إلى واحد من هذه التحرّكات الأربعة، على أن يكون تحرّكه عفويّا".

وهنا لا بدّ من التذكّر أنّ الكرم لدى العرب صورةٌ من صور الشجاعة.

يجود بالنفس إن ضنّ الجبانُ بها والجودُ بالنفس أقصى غايةِ الجودِ.

والجود والشجاعة كخلقين متداخلين، متشابكين، يستقطبان في ذهن الجاهليّ جملة الأخلاق الحميدة التي تجمعها كلمة "مروءة" وتشفّ عنها فضائل الفروسيّة المعروفة من نخوة ووفاء ورفق وأريحيّة وشهامة.

عبد اللطيف شرارة. " أبو الطيّب المتنبّي" الشركة العالميّة للكتاب. ص64

– قارن بين ما يذهب إليه الكاتب من تعريف للحماسة بما ذهب إليه محمّد اليعلاوي.

كتب الحماسة

جاءت كتب الحماسة لتأخذ مساحة كبيرة في كتب الاختيار وكان" حماسة أبي تمّام" أوّل كتاب أخذ مكانته في النفوس، فانتزع إعجابها، ووقع عليه الإجماع بسبب الاختيار الموفَّق، والذوق الرفيع والحسِّ الشعريّ الرقيق بعد أن خصّص أوسعَ باب من أبوابه لموضوعات الحماسة، ولم يكتف به وإنّما وضع كتابا آخر في الحماسة أطلق عليه اسم "الوَحْشِيَّات". ويسير البحتريّ في هذا الاتّجاه ليضع كتابا في هذا الباب ولكنّه يختلف من حيث عدد الأبواب ومضمون كلّ باب من تلك الأبواب. والتبويب الذي أدخله كان أقرب إلى موضوعات الحرب، وألصقَ بالجانب النفسيّ الذي يعتري أحوال المقاتلين، أو يدفعهم إلى دائرة المعركة. وقد أفرد بعض الأبواب لما قيل في حمل النفس على المكروه عند الحرب وما قيل في الفتك والإصحار للأعداء والمكاشفة لهم وترك التستّر منهم، وما قيل في الأنفة والامتناع من الضيم والخسف، وركوب الموت خشية العار، والتحريض على القتل بالثأر، وترك قبول الديّة والتشمير عند الحرب وذمّ الفرار، والتعيير به واستطابة الموت عند الحرب و الإنصاف فيه. ثمّ توالت كتبُ الحماسة فكان " الحماسة للخالِديّين"، "وحماسة ابن الشجري" الذي أفرد الباب الأوّل منه لباب الشدّة والشجاعة، ثمّ تأتي الحماسة التي جمعها صدرُ الدين بن أبي الفرج البصريّ وهي كتب الحماسة الكبيرة التي وقفت عند نماذج ممّا وصف به الإنسان من شجاعة وشدّة في الحرب، وصبر في مواطنها، وقد جمع في هذا الباب أكثر من مائة وأربعين قطعة. وإلى جانب هذه الحماسات المطبوعة فهناك كتب أخرى اختارت مجاميع متنوّعة من هذا الفنّ الشعريّ وما تزال مخطوطة منها حماسة الأعلم الشمنتريّ وحماسة الشاطبي...

إنّ هذا الاهتمام الواسع وهذه القصائد الكثيرة التي عرض فيها الشعراء لموضوعات الحرب والشجاعة والبسالة وما يتعلّق بمعانيها ويتأثّر بأغراضها، تمثّل التوجّه الشعريّ الذي أخذت قنواته تصبّ في المجرى الكبير الذي كان يحرّك الأحداث ويأخذ بناصية الدفاع عن القيم الأصيلة، ويسير باتّجاه الذّود عن الخصال الحميدة التي ارتفعت في النفوس واندفع الشعراء يحملون لواء الدفاع عنها، ويوجّهون الجمهور إلى التمثّل بها شعرا، والحرص على تربية الأبناء عليها من خلال النماذج الشعريّة التي كانت تشحن بالدلالات الصادقة وقد اكتملت صورها شعرا واتّسقت وزنا وقافية.

نوري حمّودي القيسي. "شعر الحرب عند العرب"
الموسوعة الصغيرة عدد 87 صص 45 - 47

1- توسّع في الفقرة الثانية من النصّ ببيان دواعي تأليف كتب الحماسة.
2- بيّن أصناف كتب الحماسة والمعايير التي اعتمدها الكاتب في هذا التصنيف.
3- ابحث في أسباب تأليف كتب الحماسة.

هل للعرب ملحمة ؟

وإنّي وإن قلت إنّ الأدب العربيّ قد حرم الملحمة المشبّهة بملاحم الأمم المشهورة التي أسمّيها الملحمة المثلى، فإني أعدّ الشعر الجاهليّ الذي قاله أصحابه في أيّام العرب " ملحمة كبرى" ولكنّها مقطّعة الأوصال، قد اشترك في وضعها نفر لا يحصى عددهم من الشعراء، وما أجد عليّ من ضَيْرٍ في هذا الرأي، فإنّ ملحمة هوميروس ليست له كلّها، وقد أنكر الناقد (وولف) وُجودَه وزعم غيرُ (وولف) نفر من العلماء النقّادين، أنّ هوميروس عنوان فقط للطائفة الشعريّة التي جمعت من أفواه الأقدمين دون معرفة قائلها، وسمّيت بالإلياذة... وإنّ في المعلّقات الجاهليّة العشر، وفي سائر ما نظم الشعراء الجاهليّون لممّا يتنخّل منه ملحمة عربيّة كبرى قيلت في الجاهليّة لأنّ خواطر أصحابها متقاربة، بل تكاد تكون متحاذية ومتشابهة وقد يضوّل الشبه بين كثير من خواطر الشعراء الجاهليّين.

وإذا كانت ملحمة اليونان تقوم على عقل"عولس"، ودهاء "آغا ممنون"وبطولة "آشيل"، فإنّ للعرب عنترة بن شدّاد العبسيّ الذي ملأ دنيا الحروب الجاهليّة، وشغل الناس إلى اليوم بقصّة أهواله وضروب شجاعته. وعند العرب جسّاس بن مرّة وكليب بن ربيعة والحارث بن ظالم، وفي آل عبس وذبيان وبكر وتغلب وغيرهم من بطون العرب وقبيلها لممّا يكاثرون به الأمم.

ولن يكون للعرب ملحمة واحدة مقصورة على الحروب الجاهليّة، فإنّ تاريخهم الحربيّ الذي نبّه إليهم الأمم المجاورة وأخافها منهم وبسط سلطانهم على القلوب، قد بدأ منذ عهد الرسول صلّى الله عليه وسلّم، فكانت للعرب قصّة حرب تبدأ من غزوات الرسول، ثمّ تنحدر إلى حروب الفتوح في ديار فارس، وأرض الروم وسائر الأقطار التي بلغ إليها العرب.

زكي المحاسني. "شعر الحَرْب في أدب العُرْب" دار المعارف بمصر 1961 ص ص 24–25

ما الّذي يحبّ الكاتب أن يثبته ؟ وما غايته من ذلك ؟

شعر الحرب

(**المُنْذِرَات**) هي القصائد التي أنذر فيها أصحابُها أقوامَهم من غارات أزمع الأعداء على القيام بها، أو تحذيرهم من مغبّة هجوم كاسح أو كارثة مهلكة أو مباغتة حربيّة، ويمكن اعتبار قصيدة لقيط بن معمر التي أنذر فيها قومه من هجوم كسرى وما أعدّه لقوم هذا الشاعر من أساليب دمار وهلاك، من أشهر القصائد التي قيلت في هذا الباب. وتظلّ (**المُنْصِفَات**) التي أنصف فيها الشعراء خصومَهم وذكروا فيها ما أبداه الخصوم من صلابة في الجلاد وقدرة على المقاومة، تمثل الجانب الأخلاقيّ الّذي تميّز به العرب حتّى في حروبهم وقتالهم... لقد استطاعت هذه الأبواب أن تترك أثرها في شعر الحرب كما استطاعت أن تأخذ أحجامها في دائرتها الّتي كانت تتميّز بالاشتداد والضّراوة، وأنّ كلّ باب منها يحمل من الدّلالات المعنويّة والصّور القتاليّة والأحاسيس الّتي كانت تصاحب هذا الضّرب الشعريّ ما يعطي هذا اللّون طابعا فنّيّا متميّزا، ويحدّد له الخصائص البيانيّة الواضحة وربّما يدخل في هذا الباب أشعار التّحريض أو المحرّضين الّذين كان لهم الفضل في تأجيج الحماس، وإلهاب مشاعر المقاومة، وتحشيد النّاس لمجابهة القوى الغازية أو الطّامعة. وقد أفرد لكلّ باب من هذه الأبواب فصل في بعض كتب الاختيار بعد أن أصبحت تيّارا له مساراته واتّجاها عرفت المضامين الّتي يمكن أن تحتويها أبياته. وقد وجدت بعض هذه الأغراض أبوابها في مجامع الشّعر العربيّ.

نوري حمّودي القيسيّ. "شعر الحرب عند العرب" الموسوعة الصغيرة عدد 87 بغداد ص47

1– ما الفرق بين المُنْذِرات والمُنْصِفات في الحماسة ؟
2– استخلص مفهوما للحماسة من خلال هذا النّصّ والنّصوص السّابقة.

الموضوعات

الحماسة والأغراض الشعريّة

يستقلّ شعرُ الرّثاء بجوانب كثيرة يمكن حصرها في باب الحماسة لأنّ الرثاء فيها يتّصل بعد أن يعرض الشعراء للمآثر المحمودة وينفرد بندب الأبطال في حومات القتال. والشّعراء في هذا الباب يميلون إلى تعداد مناقب المرثيّ وهم لا يغفلون الدّعوة إلى الاقتداء به والحرص على السّير في الطريق الّذي مات من أجله بعد أن تختلط صورُ الإعجاب بعبارات التّمجيد، وتتداخل معاني الخلود بمضامين الفخر لتنتهي إلى النهاية التي يصير إليها كل الناس وفي ذلك يقول لَبِيد :

أَتجْزَعُ ممَّا أَحْدَثَ الدّهرُ بِالفَتَى؟ وأَيُّ كَرِيم لمْ تُصِبْهُ القَوَارِعُ ؟

ومثل ما كانت أبواب الرّثاء تندفع لتصبح جزءا من شعر الحرب فإنّ شعر الهجاء والمدح والفخر والغزل كلّها يمكن أن تدخل هذه الأبواب عندما تتعرّض لأوصاف الرّجال ومواقفهم، وللحديث عن كلّ خصلة من خصالهم الّتي تمجّد عملا أو تذكر عيبا أو تقف عند مأثرة أو مكرمة. فهجاء الخصوم ونشر صفاتهم الّتي تخرجهم عن دائرة المدح وذكر جبنهم وفرارهم وعدم تحلّيهم بالخصال الحميدة وعدم التزامهم بإطعام الجائع أو تخلّيهم عن إعانة المحتاج أو العاني، أو تنازلهم عن إيفائهم بحقوق الجيرة كلّها يمكن أن تدخل في باب الحماسة، وعندها تصبح قصائد الشّعر قنوات إذاعيّة مفتوحة تجوب أطراف الجزيرة وهي تتحدّث بالصّفات مرذولة أو محمودة، وبالرّجال الّذين يضيفون إلى مجد قبائلهم مجدا جديدا، أو يفقدونها من المآثر ما يجعلها غير قادرة على أن تقف مع القبائل الأخرى إذا ذكرت المناقب أو تحدّث عن المحامد.. وهذا ما كان يشر إليه المسيّب بن علس في قوله :

فَلأَهْدِيَنَّ مع الرّياح قصيدةً مِنّي مغلغلة إلى القعقاع
ترِدُ المياهَ فما تزال غريبةً في القوم بين تمثّل وسَمَاعِ

فالشّعر كان أسلوب التّعبير عن الحرب والشّاعر يمثّل القدرة الّتي تصوغ الأسلوب وتعبّر عنه وتضفي عليه من الوجدان ما يترك له قدرة التّحرّك واستساغة السّماع وقبول التذوّق.

نوري حمّود القيسيّ. المرجع السابق ص ص 20-21

1- ما العلاقة الّتي أقامها الكاتب بين الحماسة ومختلف أغراض الشّعر ؟
2- ما وظيفة الشّعر والشّاعر قديما حسب النّصّ ؟

موضوعات الحماسة الجاهليّة ومميّزاتها

دار الشعر الحماسيّ في الجاهليّة حول وصف المعارك، ووصف أعمال البطولة، ثمّ وصف الخيول والإبل و أدوات الحروب وما إلى ذلك. وقد برع الجاهليّون في وصف المعارك وتصويرها حيّة نابضة مملوءة بالهول، كما برعوا في وصف أدواتها. فالميادين فسيحة الأرجاء، وأحياء العرب في لغط وضوضاء، يقوم فيها المنادون ينادون إلى الحرب، ويدعون إلى القتال، لأنّ الشرف قد ديس، أو لأنّ المراعي قد اغتُصبت، أو أنّ المواشي قد سيقت، أوْ لأنّ فرس فلان قد سبقت أوْ فرس بعض أبناء القبيلة، أو لأسباب أخرى ألحقت للقبيلة عارا، ونشرت في الحيّ ذلاّ وصَغارا.

ولم يكن وصف شعرائهم للمعارك وصفا مطوّلا يأخذ بالكلام من أوّله حتّى ينتهي إلى أواخره، وإنّما هي فقرات شعر في لمحات وصف مقتضبة متجزّئة. وإذا وجدنا مطوّلات في موضوع الحرب فإنّا لا نجد فيها وحدة متناسقة في الموصوفات المتشابهة.

حنّا الفاخوري.
الفخر والحماسة ط دار المعارف بمصر 1968 ص ص 65/67

موضوعات الحماسة العبّاسيّة وميزاتها

دار الشعر الحماسيّ في العهد العبّاسيّ حول وصف تعبئة الجيوش، وزحفها، ووصف الأسلحة والخيول والأساطيل والنصر وفرار العدوّ، وما إلى ذلك.وقد تتبّع الشعراء في هذا العهد أساليب الأقدمين ومعانيهم، وزادوا على ذلك أن مزجوا الحكمة بالتصوير الفنّيّ وألّفوا بين الوصف وحسن التعليل، واهتمّوا للصياغة اهتماما خاصّاكما اهتمّوا للتزويق والتهويل في الوصف والتصوير.

حنّا الفاخوري. الفخر والحماسة ص80

1- ما موضوعات الحماسة في الشعر الجاهليّ ؟
2- استخرج من النصّ السمات المميّزة لشعر الحماسة في الجاهليّة. هات أمثلة من الشعر الجاهليّ تؤكّد ذلك.
3- ما موضوعات الحماسة في العصر العبّاسيّ ؟
4- فيم تشترك مع موضوعات الحماسة في العصر الجاهليّ ؟ وفيم تختلف عنها ؟

أنشطة تشخيصية حول الشعر العربي

1- عرّف الغرض الشعري ثمّ اذكر الأغراض الشعريّة وما يجمع بينها وما يفرّق.
2- عدّد مظاهر التجديد الذي عرفته القصيدة العربيّة من الجاهليّة إلى الفترة التي سبقت أبا تمّام ثمّ بيّن عوامل هذا التجديد.
3- اذكر أهم معاني الفخر في ما عرفت من الشّعر الجاهلي وادعمه بشواهد.
4- اذكر أهم معاني المدح في ما عرفت من الشّعر الجاهلي وادعمه بشواهد.
5- اذكر أهم معاني الرثاء في ما عرفت من الشّعر الجاهلي وادعمه بشواهد.
6- ما هي معاني الحماسة الّتي تغنّى بها كلّ من أحمد شوقي وأبي القاسم الشّابي ومحمود درويش وفدوى طوقان ؟

ملف المحور

نقترح عليك أن تكوّن ملفك من الوثائق التّالية وممّا تراه يفيدك في دعم مكتسباتك في شعر الحماسة :

- مذكّرة تخصّصها لملاحظاتك الّتي استنتجتها من النّصوص التّمهيديّة.
- مذكرة تسجّل عليها معاني الحماسة عند أبي تمام والمثُل والقيم الّتي يدعو إليها.
- مذكّرة تجمع فيها الخصائص الفنّيّة لشعر أبي تمّام الحماسي .
- مذكرة تخصّصها لمعاني الحماسة عند المتنبّي والقيم الّتي يدعو إليها.
- مذكّرة تخصّصها للجوانب الفنّيّة لشعر المتنبّي الحماسي.
- مذكرة تجمع فيها معاني الحماسة عند ابن هانئ والقيم الّتي يدعو إليها.
- مذكّرة تُخصّصها للجوانب الفنّيّة لشعر ابن هانئ الحماسي.
- تغني هذه المذكرات جميعا بما طالعت عن شعر الحماسة عند هؤلاء الشّعراء وبما ورد بركن "تنوير" في آخر كلّ نصّ وبالرّجوع إلى الدّواوين والاطّلاع على قصائد الفخر والمدح والرّثاء أين تتجلّى معاني الحماسة.
- مذكرات تُقيم فيها مقارنات بين الشّعراء الثّلاثة وتبيّن فيها أوجه الاتّفاق وأوجه الاختلاف في معاني الحماسة والخصائص الفنّيّة .

ملاحظة : يستحسن أن تشرع في إنجاز ملفّك وأنت تستعدّ لدراسة المحور ثمّ في أثناء دراسته وبعدها وأن يبقى مفتوحا فتضيف إليه أو تعدّله.